

أن تأكل جيداً؟! ⁽¹⁾

فيبر و العقلانية الألمانية

د. إسماعيل نوري الربيعي

الجامعة الأهلية – مملكة البحرين

(مصرنا عصرنا يتسم بالترشيد و العقلانية ، و فوق كل ذلك بترع الوهم عن العالم) ماكس فيبر ⁽²⁾

ملخص البحث

الترشيد و العقلانية و نزع الوهم عن العالم و الأنماط المثالية ، تلك هي الوسيلة المنهجية التي ميزت عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر . حيث الإيمان المطلق بقيمة الفرد ، القائمة على الفهم الذاتي ، و التي تعد الوسيلة نحو تفسير الظاهرة الاجتماعية . و بما أن الفرد يعد كائناً عاقلاً قادراً على التمييز ، فإن الفردية لدى فيبر تحتل الأسبقية على الفكر الجماعي . و أن الواقع يسير بناء على المقاصد و النوايا التي تميز الفاعل التاريخي الذي يتماهى مع الواقع

Abstract

Rationalization , rationality , disenchantment , and Ideal types, that is the systematic method that characterized the German sociologist Max Weber. Where the absolute belief in the value of the individual, based on self-understanding , and that is the method towards the interpretation of social phenomenon. And as an individual, whoever is able to distinguish a reasonable person, the individual with the Weber occupies precedence over collective thought. And that reality is going to build on the objectives and intentions that characterize the historical actor who identifies with reality.

ماكس فيبر Max Weber 1864-1920 ، الفيلسوف و المؤرخ و عالم الاجتماع الألماني

⁽³⁾ ، الذي كان له الأثر الأبرز و الأهم في إرساء القواعد المنهجية للتاريخ الاقتصادي و الثقافي ، و توطيد

¹ Max Weber (2001) The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism , Translated by Stephen Kalberg , Roxburg Publishing Company , London , p 7. ، الأول يسعى أن ينام بسلام ، ، مستمراً المثل الشعبي السائد الذي يقول : "One can either eat well or sleep peacefully" أما الثاني فيتطلع أن يأكل جيداً ،

² Anthony J. Cascardi (1992), The Subject of Modernity, Cambridge University Press, p 16.

³ . ولد ماكس فيبر في الثاني والعشرين من شهر نيسان/أبريل عام 1864 في مدينة إرفورت الألمانية . درس علوم الحقوق والفلسفة والتاريخ والاقتصاد القومي. عمل في جامعة فرايبورغ ، انتقل إلى جامعة هايدلبرغ. ، أصيب عام 1897 بمرض نفسي جعله ينقطع عن الحقل المعرفي و العلمي فترة أربع سنوات . ليعود إلى حقل الإنتاج المعرفي مقدماً كتابه الأشهر (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) عام 1905 . عام 1909 شارك

الإطار الفلسفي لعلم الاجتماع . تأثر فيبر بتيار الكانطية الجديدة Neo – Kantianism ⁽⁴⁾ و ما أفرزته من مواجهات فكرية و التي عرفت بـ (الجدل المنهجي Mthodenstreit) في الوسط الأكاديمي الألماني حول العلوم الإنسانية و العلوم الطبيعية ، حتى أن التعريف بهذه القضية صارت تقدم باللغة الألمانية ⁽⁵⁾ ، و التي أبرزت التأثير المباشر على فكر فيبر ، لا سيما في صياغة مفهوم الأنماط المثالية Ideal Types ، التي استثمرها في صياغة كتاب الأخلاق البروتستانتية و روح الرأسمالية . أو في التوجه نحو حسم مسألة الفصل بين المنهجين (العلوم الطبيعية و العلوم الإنسانية) ، عبر التركيز على أن الطبيعي يقوم على الخبرة و القوانين العامة ، فيما الإنساني يستند إلى مدى العلاقة القائمة بين الدلالة و القيم . و هكذا قيض لـ فيبر صياغة مفهوم الفهم – التفسير Interpretation (يصوغها فيبر باللغة الألمانية Verstehen) . على اعتبار أن العلوم الإنسانية تقوم على المعاني المركبة التي تستدعي الفهم الخاص ، النائي بنفسه عن الإدراك الحسي المباشر . من أجل فهم العالم

توقف فيبر عند العلاقة القائمة بين الفهم و التفسير ، متطلعا نحو التمييز بين الفهم القائم على الوصف الظاهري المباشر ، و الفهم القائم على التفسير الواسع و الشامل . منطلقا في نظريته هذه ، إلى الإشكال القائم بين الفعل و المعنى ، بناء على الرؤية المستندة إلى الفردة Ideographic و الاتجاه المتطلع نحو التعميم Nomothetic ، حيث التأكيد على أن منهج العلوم الإنسانية ، إنما يقوم على الفردة التي تتمتع بها الظاهرة الثقافية . فيما يكون التركيز الفيبري منصبا على الفاعل الاجتماعي و الأهداف التي تعن عليه . و على هذا كان التطلع نحو تفسير الظاهرة الاجتماعية عبر التفحص العميق في الفعل الصادر عن الفرد و ليس عن الجماعة . باعتبار إمكانية ترصد و تفحص وعي الفرد ، هذا الأخير الذي يشكل السمات و الفردة التي تتميز بها الحقبة التاريخية ، بناء على الأهداف و الغايات و المقاصد التي يتبناها الفرد . في حين وجه أسهم نقده إلى التفسير من خلال النشاط الجماعي ، باعتبار التداخل الذي يقود إلى التعميم المضلل و المخل .

هذه الرؤية التي ألحت على فيبر إنما جاءت متوافقة مع نظرية الفعل Action Theory ، تلك التي وجهت جلّ مرتكزاتها حول الفعل الإنساني ، و البحث في جوانبه المختلفة من حيث المعنى و التفسير و طبيعة الفعل . فيما شكل (المعنى الذاتي للفعل) مقوما رئيسا في ترصد السمات الرئيسة التي يقوم عليها الفعل . ومن هذا وضع فيبر الأنماط الأربعة للفعل تلك التي تمثلت في ؛ (التقليدي ، العاطفي ، القيمي ، الرشيد) . على اعتبار

فيبر في تأسيس الجمعية الألمانية لعلوم الاجتماع، يعد من المؤسسين للحزب الديمقراطي الألماني عام 1919. Max (2010) Fritz Ringer Weber An Intellectual Biography, University of Chicago Press,

⁴ . ظهر هذا التيار في ألمانيا عام 1860 على يد المؤرخ كونو فيشر ، حيث استطاع أن يستميل العديد من المفكرين الألمان البارزين من أمثال فردريك لانجه ، هنريك ريكتر ، ويلهم فندلاند ، ويلهم ديلتاي . من أجل مواجهة تسرب مناهج العلوم الطبيعية في العلوم الإنسانية و الاجتماعية . ويقوم هذا التيار على معطيين ، الأول: وجود عالم قابل للإدراك حيث المعرفة الظاهرة . و عالم الشيء في ذاته حيث الجمال و الحرية و الفضيلة و الأخلاق . أما المعطى الثاني فيقوم على : السعي نحو تحليل الشروط المنهجية للمعرفة الموضوعية المتعلقة بالجهاز المفاهيمي الخاص بالعلوم الإنسانية. Paul Honigsheim and Alan Sica (2003), The Unknown Max Weber, Transaction Publisher, New Jersey, p 102.

⁵ . Geisteswissenschaften and Naturwissenschaften

البحث عن تفسير لأفعال و علاقات و أفكار الأفراد ، بالإضافة إلى الخصائص و السمات التي يتمتعون بها ، حيث الفردية المنهجية **Methodological Individualism** . و تتبدى المعالجة المنهجية في صياغة مفهوم فرص الحياة **Life Chance** ، الذي تم توظيفه في موضوع الطبقة و المكانة و الموقف الطبقي ، باعتبار أن الفرد ومن خلال فعله الاجتماعي ، يتم ترسيم حدود فرصه من خلال توزيع الثروة في الجسد الاجتماعي ، عبر مجال توافر الثروة و السلع و الخدمات داخل السوق.⁽⁶⁾

تكمّن نظرة فيبر إلى علم الاجتماع ، بوصفه المسعى نحو فهم الفعل الاجتماعي من خلال دراسة السلوك البشري الفردي ، عبر ربطه بالمعنى . حيث التركيز على دراسة الأهداف المقاصد التي توجه ذلك السلوك ، و تجعل منه فعلا اجتماعيا . و هكذا يكون الفهم **Verstehen** الذي ركز عليه فيبر قائما على ؛ مجمل التفاعلات و العلاقات التي تتم بين الأفراد. أنه التركيز على الفعل الفردي الذاتي ، الذي لا يمت بأية صلة للجماعي العام ، على اعتبار أن الفعل الإنساني لا يقوم على الانتظام و الترابط . أو أن ثمة حتمية يمكن لها أن تحدد مسار تاريخ البشرية . و على هذا فإن مهمة العلوم الاجتماعية إنما تتلخص في ؛ الوصف ، التحليل ، التصنيف . التمييز الأهم يمكن ترصده في أحوال الفصل بين ؛ القيم و المعرفة . و إذا أريد للبحث الاجتماعي من أداء دوره العميق و الفاعل في التحليل و التفحص ، فإن التطلع يجب أن يتحدد في مجال محفزات القيم و الدوافع التي تحدد مسار السلوك الفردي على صعيد الواقع . فيما تبقى الأهمية حاضرة حول ضرورة نأي البحث عن التحيزات و الأسبقيات . ومن أجل بلوغ فهم الواقع فإن من المهم التطلع نحو أعمال العقل في دراسة الفعل الاجتماعي من خلال التفاعل الحي مع الواقع .، إذ لا يمكن تعميم ظاهرة و إسباغها على ظاهرة أخرى ، فلكل ظاهرة فرادتها و ظروفها و محدداتها الخاصة بها. و لكل مجال و حقل اجتماعي له سلوكه الذي يمكن تصنيفه بناء على المحددات الحاكمة له .

القصدية و التوجيه

يقرّ فيبر إلى أن الفعل الإنساني إنما يقوم على أحوال التداعيات النفسية و الاجتماعية و التاريخية . لكن هذا التداعي يمكن مواجهته من خلال إمعان النظر في رصد مساره ، سعيا لفهمه و تفسيره ، و بالتالي الوقوف على استشراف مستقبلي له. ومن هذا المنطلق كان التوقف الجاد عند التمييز بين المفاهيم العامة و الوقائع التجريبية . عبر اجترّاح رباعية الأنماط المثالية لفعل الاجتماعي المستندة إلى ؛ النمط المثالي الموجه بالعقل حيث العلاقة القائمة بين السبب و النتيجة . و النمط المثالي الموجه بالقيم الأخلاقية و العقائدية ، و النمط المثالي الموجه بالعاطفة ، و النمط المثالي الموجه بالتقاليد التي تفرضها اشتراطات المؤسسة و تقاليد العمل و العلاقات السائدة فيها .

لقد بحث فيبر في صلب مستويات الفعل الاجتماعي متتبعا ، مستوى (القصد و الغاية) ، و مستوى العلاقات الاجتماعية التي تدور بين أكثر من فاعل اجتماعي . ، و مستوى العلاقات القائمة على النظام الاجتماعي الذي يحدد مسار التفاعل الاجتماعي. و عبر هذه المستويات قيض لفيبر من الوقوف على (مضمون الفهم) ، و

⁶ R. Dahrendorf(1979) , Life Chances, Weidenfeld and Nicolson, London. See also, John Urry, Nicholas. See also, Wendy Bottero(2005) Stratification: Social Division and Inequality, Routledge, New York, p 38.

الذي يتعلق بأن السوسيولوجي لا يروم التوقف عند أهداف الفاعل الاجتماعي ، بقدر ما يكون التطلع نحو تفسير هذا الفعل . إنه المسعى نحو الفهم الفدري ، باعتبار أن الفعل إنما يقوم على (الخبرة القائمة على التجربة) . فيما كانت الوقفة المتأملة عند (مضمون الفعل الانساني) بوصفه سلوكا يقوم على الغاية و المعنى . فيما يرفع الحوادث العرضية من قائمة اهتمامه ، بوصفها سلوكا لا ينطوي على فعل مقصود أو يحمل معنى . أما (مضمون الفعل الاجتماعي) فهو يقوم على القصدية المتعلقة بسلوك الآخرين . حيث الحضور الطاعني للمعنى المشترك . لكن هذا المشترك لا يقبله فيبر بالطلق ، بل سرعان ما يضع اشتراطاته المتعلقة بقيمة الفعل ، من خلال ارتباط السلوك بالواقع .

التحرر من القيمة

يصوغ فيبر مفهوم التحرر من القيمة Value- Freedom ، بناء على الفكرة التي تقول إن المفاهيم المستخدمة في العلوم الاجتماعية و الإنسانية ، لا يمكن لها أن تغطي المحمل من التفاصيل التي يزخر بها الواقع المركب و المعقد . و بالقدر الذي تقوم فيه المفاهيم و المصطلحات في المجال الاجتماعي على المزيد من المعاني و القيم . فإن اختيار الموضوعات إنما يخضع لـ دلالة القيمة Signify of value ، و التي تمثل الموجه في اختيار الوقائع للموضوعات ، عبر إبراز و إظهار المضمون المضمّر الذي تكتنّز به الظاهرة . هذا مع أهمية الأخذ بنظر الاعتبار أن زوايا النظر تبقى قائمة على الاختلاف و التنوع الذي لا يمكن حصره . حيث حالة الاقتراب من اللحظة الحرجة ، تلك التي تتمثل فيها ، اتجاه الباحث صوب صياغة الفكرة ، ليقع شاء أم أبى في فخاخ (التحيز الموضوعي) ، باعتبار اعتماد تقنية البحث على العلاقة السببية ، تلك التي تقوم أصلا على دلالة القيمة الكامنة فيها ، و الظروف المحيطة بالموضوع أصلا .⁽⁷⁾

انصبت جهود فيبر على الفصل بين العلم و القيم ، على اعتبار أن هذه الأخيرة لا عقلانية . و هكذا كان التوجه نحو تشذيب علم الاجتماع من عناصر اللاعقلانية من خلال استبعاد القيم المتعلقة ، بالأيدولوجيا و السياسة و رؤية العالم . فالقيم يمكن أن تكون موضوع بحث ، إلا أن الروح العلمية حين تتعاطى مع منظومة القيم ، تتعرض إلى فقدان المزيد من العقل و الحقيقة ، هذا بحساب أن منظومة القيم إنما تقوم على الرغبة و الاعتقاد . و بناء على هذا جاءت دعوة فيبر الصارمة و الواضحة حول أهمية فصل العلم عن السياسة .

الترشيد و عقلنة العالم

مرتکز رؤية فيبر تقوم على أن التطور الذي شهدته المجتمعات المعاصرة ، إنما يقوم على الترشيذ Rationalization الساعي نحو نزع الوهم عن العالم Disenchantment ، باعتبار أن نموذج الدولة المعاصرة القائمة على القانون و العلاقات الرأسمالية و الإدارة البيروقراطية ، إنما جاء عبر ترشيذ الحياة اليومية بناء على التوجه نحو استثمار المعرفة بشكلها الخلاق الفاعل ، و تعزيز مسار العلاقة القانونية النائية بنفسها عن الإطار الشخصي ، و التطلع نحو السيطرة على البيئة و استغلال الموارد ، بما يحقق الرفاهية و التطور لمحمل التفاصيل

⁷ Joshua Deman (2012) Max Weber in Political and Social Thought; From Charisma to Canonization, Cambridge university Press, p 71.

المتعلقة بالمجتمع الحديث. إلا أن فيبر يضع يده على المفارقة الموضوعية في عملية الترشيد هذه ، عبر بوابة ترصد ثنائية ؛ الغايات و الوسائل. فإذا كانت القوانين و الرأسمالية و البيروقراطية تعدّ وسائل ، الغاية منها التنظيم و العمل على زيادة الرفاهية و تحسين أوضاع المجتمع ، فإنها بتحويلها إلى غايات و أهداف ، استحوّلت إلى قيود تعطل مسار المحمل من أنشطة المؤسسات العاملة في الحقل الاجتماعي . بل أضحت عملية الترشيد ، بمثابة القواعد التي ينبغي على المرء الانخراط في تجلياتها ، و التبعية المطلقة لأهدافها و غاياتها المرسومة . ومن هذا فإن الخلاص من كل هذا التداخل إنما يمر عبر الدور الذي تضطلع به الشخصية الكاريزمية .⁽⁸⁾

لقد حصر فيبر مفهوم الترشيد بوصفه وسيلة منهجية لتحليل المجتمع الرأسمالي ، حيث التمييز القائم على جملة المعطيات التي يقوم عليها، إن كان على مستوى التنظيم و العلاقات و العقيدة و السياسة و الثقافة . و من هنا فإن مقياس رشد النظام إنما يتم عبر ارتباطه بنجاعة أدواته في تحقيق أهدافه. فيما تبقى أحوال الخلاص من قيود الأعراف و التقاليد ، أو سطوة القيم ، أو هيمنة العلاقات الشخصية على الواقع ، بمثابة السمة الرئيسة التي تميز رشد نظام أو مؤسسة عن أخرى.

الكاريزما و البحث عن المنقذ

لقد شخص فيبر ثلاثة أنماط للسلطة (التقليدية ، الكاريزمية ، الرشيدة) . فيما توقف عند السلطة الكاريزمية Charisma القائمة على سمات الفرادة التي يتمتع بها القائد ، و الإلهام الذي يميزه . إنها السلطة التي تقوم على التأييد الجماهيري الواسع حيث التعاطف الكبير و الشغف الهائل بشخصٍ مُنح صفات ، يعدها الجمهور فوق البشر العادي . إنها صورة المثال الذي ترسمه الجماهير في مخيلتها ، من أجل بلوغ أهداف قصوى و طموحات واسعة تتعلق بالآمال و الخيالات التي تعنّ على الأمة في مرحلة ما، باعتبار البحث عن المنقذ القادر على قيادة المجتمع نحو تحقيق الأحلام و الآمال المنشودة. إنها أحوال العلاقة بين قائد و أتباع تحكمها اللاعقلانية و اللا مألوف . و هي مظهر من مظاهر التغير لحمل العلاقات التقليدية ، عبر إلهام الجماهير روحا من العاطفة الجياشة ، التي تصل في الكثير من الأحيان في التأثير في سيكولوجية الجماهير ، أو ما يقارب التنويم المغناطيسي . لكنها في النهاية تبقى تسير لصالح المتبوع ، فيما يتمتع القائد الملهم بجميع المزايا . أو كما يعلق فيبر نفسه حول هذه العلاقة ؛ (إنه مكتوب ، و لكنني أقول عليك)⁽⁹⁾ و الواقع أن توقف فيبر المدقق و المعمّق في السمات المتعلقة بالشخصية الكاريزمية ، جعلت العديد من دارسيه و شارحي نصوصه ، يشيرون إلى أنه قد بشّر بظهور شخصية هتلر ، التي تعاطف معها الشعب الألماني في أعقاب الهزيمة المذلة ، التي تعرضت لها ألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى .⁽¹⁰⁾ و تبقى السلطة الكاريزمية رهينة بشخص القائد ، و على هذا فإن مجال استمرارها يبقى محدودا ، باعتبار ما يتعلق بالتغيرات و الأحوال و الأوضاع التي تحيط بالقائد ، أو حين يتعرض للنهاية الطبيعية و المتمثلة

⁸. Anthony Kronman (1983) Max Weber: Jurists Profiles in legal Theory , Stanford University Press, p 50.

⁹. Max Weber(1968) , On Charisma and Institution Building, Edited by Eisenstadt, University of Chicago Press, p

51. “ It is written ... but I say unto you”.

¹⁰. Joseph Nyomarkay (1967) , Charisma and Factionalism in the Nazi Party, University of Minnesota, p. 9.

بالموت . لتبقى تلك الظاهرة عالقة بين النمطين (الرشيد أو التقليدي) .⁽¹¹⁾ يتوقف فيبر عند الكاريزما بوصفها حالة استثنائية ، تتعلق بالشخصية القيادية ، التي تنهل عن النموذج البيروقراطي ، حيث تأسس العلاقات، على اعتبار أن الدولة الحديثة إنما جاءت نتيجة لمؤثرات الكاريزما ، بوصفها الموهبة التي تتمتع بها الشخصيات الاستثنائية ، القادرة على حشد الأتباع . من خلال القدرات المتميزة ، و التأثير في الجمهور ، و استيعاب روح التاريخ . و هكذا فإن الشخصية الكارزمية تقوم على فكرة تحويل الأفكار و الآمال و الطموحات إلى ممارسة واقعية ، عبر المجاهدة المباشرة مع التقاليد ، و القدرة الفائقة على تفجير المشاعر و حفزها ، و الوعي العميق لروح العصر .

تتجلى ملامح الشخصية الكارزمية خلال الأزمات التي تتعرض لها الأمة ، و يبرز دورها في أوضاع الاختلال و تنامي الحاجة إلى البحث عن الحلول الاستثنائية . و في هذا لا يتوان فيبر من وضع المعادلة القائمة على أن تفاعل العلاقة بين الكاريزما و البيروقراطية ، إنما يقود إلى خلق حالة من التواصل التاريخي لدى الأمة . عبر القدرة غير المحدودة على مواجهة الخلل ، و القابلية على انجاز المواقف غير المألوفة . بل أن اشتداد الأزمة يجعل من الجماهير تسعى جاهدة للاستنجاد بالشخصية الكاريزمية ، و إن كانت خارج نطاق العلاقات التقليدية المستقرة التي تنتجها البيروقراطية أو العلاقات الطبقية القائمة على السيد الإراستقراطي القائم على النبالة و المكانة الاجتماعية التقليدية . إنها الفريدة الخارقة القائمة على الابتكار و التجديد ، و المتطلعة نحو النهل عن النموذج الذي تتوقف عنده الأمة بوصفه الأوج و الألق ، و المسعى نحو بث شحنات التجديد فيه و العمل على تحديثه ، بما يتوافق و المزاج النفسي الجمعي . إنها الاستجابة القائمة على التميز لحاجات المجتمع، استجابة يتداخل فيها العقلي و العائدي و النفسي .

حمولات البيروقراطية

يقول فيبر ؛ (الإدارة البيروقراطية في أصلها ، تمثيل للهيمنة من خلال المعرفة) ،⁽¹²⁾ و هكذا فإن السلطة الرشيدة الساعية نحو إدارة الموارد و تنظيم مستوى العلاقات عبر الإفادة القصوى من المعرفة ، إنما تمر عبر بوابة النمط البيروقراطي ، و هو من الأنماط المثالية التي توقف عندها فيبر ، و شغلت المساحة الواسعة من جلّ فكره و انشغالاته المعرفية . إنها الإدارة القائمة على الجهاز الوظيفي الذي يشكّل همزة الوصل بين النخبة القائدة و الجمهور ، بناء على العلاقات اللاشخصية القائمة على نجاعة القانون . إنه المسعى نحو تطوير الوسائل و الأدوات من أجل تسويق الهيمنة و السطوة و السيطرة . حيث الحضور الطاعى و الحاسم لفعالية الترشيح .

و هكذا تقوم البيروقراطية على السلم الوظيفي ، المستند إلى التدرج الهرمي ، في نوع الواجبات و مستويات الاتصال ، و الاعتماد المتزايد على الخبرة و الكفاءة في تنظيم العمل الإداري و الوثائقي ، مع الحفاظ الصارم و الدقيق على تقاليد العمل و الكتمان و السرية . بالإضافة إلى تبني خطة عمل واضحة تقوم على جدولة الأولويات و ترسيم ملامح الأهداف ، و المسعى نحو الحفاظ على السيطرة ، من خلال التوافق الدقيق مع القواعد الساعية نحو التمييز بين الرسمي و الشخصي . إنه الكادر الوظيفي الذي يمثل النمط المثالي ، عبر تحصيله على الوظيفة من

¹¹ . Max Weber, Economy and Society , Ed by Guenther Roth and Claus Wittich, University of California Press, p 1114.

¹² Op cit, vol1 , p 225 .

خلال الخبرة و الكفاءة . و التي تكفل له التواصل في عمله و منحه الرتبة و المكانة و الواجهة في مجتمعه ، لينعكس ذلك في خلق فئة تنتمي إلى مجالها و حيزها المميز .

قيمة البيروقراطية تتبدى في قدرتها الواسعة على تحقيق الهيمنة ، فيما يبقى مقياس الرشد فيها مرتبطا بقدرتها على تحقيق الأهداف . إلا أن هذا كله يبقى رهنا بشروط تتمثل في توافر العلاقات الديمقراطية القائمة على المساواة أمام القانون . و قدرة الإدارة و إمكانياتها في رسم الخطط و معالجة المشكلات العالقة ، و التطلع نحو الممارسة الفاعلة المستندة إلى الاضطلاع بالمهام بكفاءة و مهارة ، و تواصل لا يعرف الوهن أو الفتور . فيما تبقى فعالية البيروقراطية مرتبطة بالعلاقات الرأسمالية و الحراك الذي يفرضه اقتصاد السوق و التفعيل الذي تستلزمه حرية التجارة .

على الرغم من محاولات النقد الثقيلة التي يتم توجيهها إلى البيروقراطية ، إلا أنها تبقى الوسيلة الأكثر نجاعة في تسيير متطلبات الدولة الحديثة . فهي الحاجة التي لا يمكن الاستغناء عنها . نعم قد يترهل الجهاز الإداري و تبرز أعراض الإتكالية ، و محاولات الإفلات من المسؤولية و يغدو عبئا على الدولة و المجتمع . و قد يتعمق الروتين في صلب العلاقات ، و يعمل على تعطيل المزيد من الإجراءات و القرارات . و قد تتبدى ملامح استغلال المنصب و الفساد الإداري و المحاباة . و يمكن أن يتحول الجهاز الإداري على أداة تعطيل حين يتم التمسك بالشكل على حساب المضمون و الجوهر العميق الدال . إلا أن هذا النموذج تبقى أهميته حاضرة و فاعلية في صميم العلاقات التي تفرضها حاجات الدولة و المجتمع . البيروقراطية يختصرها في فير في رباعية (الإنجاز ، العلاقات ، القوة ، الخلل في الأداء) . إنها ملامح قوة التنظيم الذي يبقى يشير إلى تنامي البيروقراطية بحسب فير ، فيما كان معاصروه يبشرون بأن المستقبل يبقى فاردا ذراعيه للحرية و الديمقراطية⁽¹³⁾ . مثل فير مصدر إلهام للمزيد من الفرضيات و النظريات ، لا سيما على صعيد نظرية التنظيم Organization Theory ، التي استلهمت من النمط المثالي في تنظيم الدولة ، المكانة التي يشغلها الموظفون العاملون في بنية التنظيم ، و ما تفرزه تلك المكانة من واجبات ، و طريقة التحكم في مجرلايات العمل و السيطرة و التوجيه على القرار جوهريا⁽¹⁴⁾ .

المثال اللا مثالي

يمثل النمط المثالي Ideal Type مفهوما مركزيا في فكر ماكس فير وقد يأتي وصف المثالي هنا مضللا ، فليس القصد بالمثالي هنا المتكامل الخالي من العيوب ، بقدر ما هو تعبير عن وضع أو حالة⁽¹⁵⁾ . يتم من خلالها تمييز نظام اجتماعي ، يكون المثال هنا بمثابة الوسيلة التي تضطلع بمهمة تمييز سمات هذا النظام ، و توفير وسيلة تطبيقية للباحثين من أجل فرز المكونات ، و حصر مجال البحث و التدقيق ، مع المرونة التي يتم اسباغها على

¹³ Frank Elwell , Verstehen : The Sociology of Max Weber , Rogers State University, 1996.

¹⁴ Richard Swedberg (2000) , Max Weber and the Idea of Economic Sociology Princeton University Press, p 169

¹⁵ Rolf E. Rogers , (1969) , Max Weber's ideal type theory , Philosophical Library, Social Science , p90.

البحث ، عبر القابلية على التعديل. إنها المحاولة المعرفية المتطلعة نحو فهم الواقع ، من خلال التوجه نحو كل ما يتعلق بالأفراد من ؛ أفعال و علاقات .

نحن إذن بإزاء و سيلة منهجية ، تقوم أصلا على وجهة النظر الناتجة عن ترصد الفعل الاجتماعي داخل الواقع و ما يحيط به من سمات. و التوقف عند النموذج بوصفه فكرة تتمثل فيها هذا الفعل. لكن هذا التوقف يبقى يدور في فلك الفعالية العقلية ، و على هذا فإنه من الصعب أن تجد تطابقا ما بين المثال و الواقع . إنه و سيله تحليل و أداة مقارنة ، سعيًا نحو فرز العلاقات السببية الكامنة في النموذج . و ليس التطلع نحو بناء أو صياغة نموذج . بل أن الأمر يقوم على التصور العقلي الذي يتبناه الباحث ومدى العلاقة القائمة بين هذا النموذج و الواقع. من خلال تمييز ملامح العقلانية في الظاهرة . إنها المحاولة المتوجهة نحو الوقوف على نقاط المطابقة المتوفرة في النماذج القائمة في الواقع ، و التي يجمعها مسار ؛ الوسائل و الأهداف.

نموذج فيبر المثالي إنما يقوم على ؛ التطلع نحو رصد الواقع من خلال صياغة النموذج المثالي ، عبر تركيز الفعالية العقلية بوصفها سمة إنسانية عامة ، و القائمة على التفكير و الممارسة المستندة إلى الترشيده ، في سبيل الوصول إلى تنظيم العالم ، و بالتالي الوقوف على الطريقة التي يتحرك بها العالم ، من خلال عقد المقارنة ما بين النموذج المثالي و الواقع.

روح الرأسمالية

يؤكد فيبر إلى أن الرأسمالية لم تكن اكتشافا غربيا محضا ، بل أن العلاقات التي تميزها مورست من قبل المزيد من الحضارات و الثقافات ، لا سيما على صعيد السعي نحو تحقيق الأرباح . إلا أن الملمح المنهجي الذي طغى على كتابه الأشهر (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) . كان قد تطلع نحو اختبار المقولة الماركسية التي توقفت عند أثر العامل الاقتصادي في إبراز و إنتاج الظواهر الثقافية و الاجتماعية . باعتبار أن الوجود سابق للوعي ، و هو المسؤول عن تشكيل الاتجاهات و التطلعات و الرؤى و التصورات . لم يكن فيبر راغبا بالدخول في حجاج مباشر مع النظرية الماركسية ، بقدر ما توجه نحو اختبار الأثر الذي تحدثه القيم الاجتماعية و الثقافية في رسم معالم العلاقات ، لا سيما حين يتم التطلع نحو عقد المقارنة المباشرة بين الرأسماليات التي ظهرت في الثقافات المختلفة ، و الرأسمالية الغربية التي قامت على (العقلانية و الترشيده) . الواقع أن الفاصل بين النموذجين (الماركسي و الفيبري) لم يقيم على جدل بيزنطي حول البيضة أم الدجاجة ؟! بقدر ما تمثل في طريقة التعاطي مع زاوية النظر و طريقة القراءة في قراءة الواقع ، فإذا كان ماركس قد حلل الواقع من خلال علاقات ووسائل و قوى الإنتاج، فإن فيبر قد عمد إلى بناء نموذج منهجي بناء على التبادل الذي يحكم السوق . المستند إلى (الترشيده ، الثروة ، الفصل بين الاقتصادي و الاجتماعي) . فيما تقوم النظم الرأسمالية على؛ النظام النقدي، ناتج العمل ، الملكية الخاصة ، البحث عن المواد الأولية ، العمل الحر) .

وهكذا يشرع فيبر في التوجه مباشرة نحو تقديم نموذج (التقشف الكالفي) الذي كان له الأثر الأهم في تنامي البروتستانتية ، و التوجه مباشرة نحو النهل من الواقع ، من خلال الإشارة المباشرة إلى الأحوال الاقتصادية الجيدة التي يعيشها البروتستانت في ألمانيا مقارنة بمواطنيهم الألمان الكاثوليك. استنادا إلى تحليل عناصر البروتستانتية القائمة

على ؛ (العقلانية ، التقشف ، الفردية) . و الترشيده المستند إلى ؛ (الواقعية ، الإنتاج ، العمل) . و عبر هذه العلاقة القائمة بين الطرفين (البروتستانتية و الترشيده) ، قيض للرأسمالية أن تنمو و تنضج و تؤدي ثمارها ، عبر بروز دور المؤسسة البيروقراطية . و التي قامت على التطلع نحو السيطرة على الواقع من خلال المعرفة . إنها المعرفة الرشيدة القائمة على ثنائية السيطرة على الموارد ، و القدرة على التخطيط المستقبلي للموارد . و هكذا كان الربط بين الرأسمالية و طريقة التعااطي مع الإنتاج ، عبر تنامي دور الرقابة الإدارية ، من خلال بروز المؤسسة البيروقراطية ، و التي افسحت المجال لا حتلال الطبقة الوسطى ، من أداء دورها في المحمل من الفعاليات التي ترافقت مع النمو الرأسمالي ، لا سيما في بدايات القرن العشرين . بالإضافة إلى التوسع الذي شهده قطاع المؤسسات المالية ، لا سيما على صعيد تمويل المشاريع و زيادة أهمية البنوك في الإقراض و التأمين .

العقيدة و المشروع

ربط فيبر بين القيم التي تقوم عليها العقيدة البروتستانتية القائمة على (العمل ، تنظيم الوقت ، الزهد) حيث الالتزام الذي يطبع المحمل من توجهات المؤمن ، سعيا لبلوغ الخلاص و مرضاة الله . فيما تقوم روح المشروع الرأسمالي على الإغلاء من شأن الربح ، من خلال (العمل ، تنظيم الوقت ، الانضباط) . الربط هنا يقوم على جملة من التقاطعات بين النموذجين ، بين نموذج زاهد عقيدي ديني ، و آخر ربحي تجاري يقوم على التعااطي المباشر مع الماديات . إلا أن الصلة الفكرية Elective Affinity⁽¹⁶⁾ التي ميزها فيبر إنما تقوم على أن الرأسمالية لم تكن نتاجا للبروتستانتية ، بقدر ما مثلت هذه الأخيرة مهادا روحيا و قيميا و ثقافيا لنموها و تطور علاقاتها في الغرب تحديدا . لا سيما على صعيد التلاقي الحاسم بين (الزهد و الانضباط) . وهو ما يمثل جوهر فكرة الترشيده ، التي مثلت الأصل الفكري في المحمل من المعالجات المعرفية التي ميزت أعمال فيبر . إنها أحوال التسلسل للقيم بين النموذجين عن غير قصد ، بقدر ما كانت الصلة تقوم على تمييز مفاصل (الأفعال و المعتقدات) و قدرة البروتستانتية في تشكيل روح المشروع الرأسمالي⁽¹⁷⁾ عبر بوابة الترشيده الساعية نحو بناء النموذج الخالي من المظهريات ، و توجيه أرباح العمل نحو التراكم و تنظيم الحياة ، و الإفادة القصوى من مكتسبات الأرباح . حيث التوجه نحو الإنتاج من خلال بناء نموذج المؤسسة المستندة إلى العقلانية في إدارة المشروع الرأسمالي .

إنها المؤسسة القائمة على صرامة النظام البعيد عن العلاقات الشخصية ، و الساعية نحو استثمار كل ما هو متاح و ممكن ، و هكذا تضافرت مراحل النمو عبر بوابة الرأسمالية التجارية و التي أثمرت ظهور و تنامي الطبقة البورجوازية على حساب طبقة الاقطاعيين . أو الدور الذي لعبته طبقة الأرستقراطية في الرأسمالية الزراعية في إنتاج المحاصيل النقدية . أو الدور الذي لعبه البورجوازيون في ملكية وسائل الإنتاج في نموذج الرأسمالية الصناعية ، حيث تقسيم العمل و الفصل بين العمل المتزلي و العمل الصناعي و اعتماد نظام العمل الحر . بالإضافة إلى الدور

¹⁶. Marisol Lopez Menendez, Mr Fanon Howell, Professor David Chalcraft , Hector Vera (Editors) , (2012) , Max Weber Matters: Interweaving Past and Present, Ashgate Publishing, P 152.

¹⁷. Sara R. Farris (2013), Max Weber's Theory of Personality: Individuation, Politics and Orientalism ,Danvers , USA, p77.

الذي اضطلعت به الرأسمالية المالية ، حيث التوسع في مجال المضاربات و التمويل و الإقراض و المضاربات و السندات و الأسهم . الرأسمالية إنما هي تمثيل لوعي يتوجه نحو استثمار رأس المال من خلال مؤسسة تقوم على التنظيم الرشيد القائم على الانضباط و الصرامة ، و اعتماد مبدأ العمل الحر . و يعتمد فيبر لاقتباس مبادئ الرأسمالية عن بنيامين فرانكلين⁽¹⁸⁾ عبر الإشارة المباشرة إلى قيمة المال بوصفه (وقت ، ثقة ، مولدا للمال ، دافعا للحصول على مال الآخرين) بالإضافة إلى (الحصول على ثقة الآخر و القناعة و الشرف) . و هكذا يتوقف فيبر عند روح الرأسمالية ، باعتبار الوقوف عند فكرة المنفعة ، عبر تفعيل الحافز الديني و جعله موجها قيما في صلب العلاقات الاقتصادية ، حيث البحث عن الالتزام الأخلاقي و القيمي ، حيث الأفكار التي تضطلع بدور المحرك التاريخي ، و الموجه الفاعل في السلوك الإنساني الفردي ، وما يمكن أن يؤديه من تأثير على مستوى الفعل الاجتماعي.

¹⁸ Gordon S. Wood (2004) , The Americanization of Benjamin Franklin, Penguin., London , , p 7